

الفصل السابع عشر

الثورة الاجتماعية

١٥٢٢ - ١٥٣٦

١ - الثورة الصاعدة

لقد كان الفرسان المسغبون ينتظرون في صبر نافذة فرصة مواتية للثورة على الأمراء والبطارقة والممولين . وكان شارل الخامس بعيداً عن البلاد في إسبانيا عام ١٥٢٢ ، وفرق سيكينجن ينتابها القلق بسبب تعطلها عن العمل ، وكانت الأراضي الغنية التي تمتلكها الكنيسة مباحة ويمكن الاستيلاء عليها بسهولة . وكان هوتن يدعو للعمل ، وكان لوثر قد دعا الشعب الألماني إلى تطهير الأرض من مضطهديه .

وفي الثالث عشر من أغسطس وقع عدد من الفرسان في لاندאו تعهداً بالعمل الموحد ، وحاصر سيكينجن مدينة تريبز وقلدها بمنشورات تحرض الناس على الانضمام إليه نلح كبير الأساقفة الحاكم ، ولكنهم لم يحركوا ساكناً ، وجمع كبير الأساقفة فرقاً ، وقادها بنفسه ، ثم قام بخمس هجمات مضادة ، فرفع سيكينجن الحصار عن المدينة وتراجع إلى قلعته في لاندشتول . وهاجم كبير الأساقفة القلعة بعنف ، وأصيب سيكينجن بجرح قاتل وهو يدافع عنها ، ثم استسلم في اليوم السادس من مايو عام ١٥٢٣ ومات في اليوم السابع من مايو . ونخضع الفرسان للأمراء وسرحوا الجنود العاملين يبيوشهم الخاصة وتشبثوا في قسوة يائسة بالضرائب الإقطاعية المفروضة على الفلاحين التي كانوا يعتمدون عليها في معاشهم .

وتنبأ لوثر بهذا التصدع فتنصل من الثورة قبل فوات الأوان (١٩ ديسمبر سنة ١٥٢٢) واستمر نجمه في صعود . وكتب الأرشيدوق فرديناند لأخيه الإمبراطور (١٥٢٢) « إن قضية لوثر تمتد بجنورها عميقة في الإمبراطورية بأسرها إلى حد أنه ليس هناك شخص واحد من كل ألف في عصمة منها » (١) . وكان الرهبان والقساوسة يقبلون زرافات إلى مذبح الزوجية الحديد . وترددت في كنيسة لورنز وزيبالدوس بنورمبرج « كلمة الله » - وهي العبارة التي أطلقها المصلحون على عقيدة تقوم على الكتاب المقدس فحسب . وأخذ الوعاظ الإنجيليون ينتقلون بحرية في أرجاء شمالي ألمانيا ويستولون على منابر قديمة ويشيدون منابر جديدة ، ولم ينددوا بالبابوات والأساقفة باعتبارهم « خدماً للشيطان » فحسب ، واكنهم نددوا أيضاً بالسادة الزمانيين باعتبارهم « مستبدين ظالمين » (٢) . ومهما يكن من أمر فإن السادة الزمانيين كانوا هم أنفسهم ممن اهدتوا بهدى العقيدة الحديدية : فيليب الهسي وكازيمير البراندنبرجي وأولريخ الفيرتيمبرجي وأرنست اللينبرجي وجون صاحب ساكسونيا . بل إن إيزابيلا شقيقة الإمبراطور كانت من أتباع لوثر .

وكان الأستاذ القديم لشارل قد أصبح الآن البابا أدريان السادس (١٥٢١) فأرسل إلى مجلس النواب في نورمبرج (١٥٢٢) طلباً بالقبض على لوثر واعترافاً صادقاً بالأخطاء التي تردت فيها الكنيسة : « إننا نعلم تمام العلم أن أموراً كثيرة تستحق المقت قد تجمعت حول منصب البابا منذ سنين عديدة . وقد أسىء استخدام الأشياء المقدسة واعتدى على القوانين حتى إنه في كل شيء كان هناك تغيير إلى الأسوأ ، فلا عجب إذا كان المرض قد زحف من الرأس إلى الأعضاء ، من البابوات إلى من يلونهم في المناصب . لقد حدثنا نحن جميعاً ، من البطارقة ورجال الدين ، عن الطريق المستقيم ، ومنذ عهد بعيد لم يعمل واحد منا عملاً صالحاً ، لا أحد بتاتاً ولذلك فإننا سوف نبذل كل ما في طاقتنا من جهد لإصلاح المحكمة الرومانية قبل

كل شيء آخر ، وهى التى ربما كانت سبباً فى كل هذه الشرور . . . إن العالم بأسره يتوق إلى مثل هذا الإصلاح» (٣) .

ووافق المجلس على أن يطلب من الأمير المختار فردريك كنجج بجماح لوثر ، ولكنه تساعل لماذا يجب أن يدان لوثر لأنه أشار إلى المظالم التى ارتكبتها رجال الدين والتى أيدتها السلطات وقتئذ . وعند ما وجد المجلس أن اعتراف البابا ليس فيه ما يكفى من التفاصيل أرسل له قائمة خاصة ضمنها مائة مظلمة من ألمانيا ضد الكنيسة واقترح أن ينظر بعين الاعتبار إلى هذه الشكاوى ، وعلاجها بوساطة مجلس وطنى يعقد فى ألمانيا برئاسة الإمبراطور . واستمع المجلس النيابى نفسه ، وكانت تغلب عليه طائفة النبلاء ، فى عطف إلى الاتهامات الموجهة ضد الاحتكاريين بأنهم يثرون على حساب الشعب وكتبت إحدى اللجان إلى المدن الكبرى فى ألمانيا تطلب منها إبداء رأيها فيما إذا كانت الاحتكارات ضارة وهل يجب تنظيمها أو القضاء عليها . وردت مدينة أولم بأنها شر مستطير وأن المؤسسات التجارية يجب أن تكون مقصورة على الأب وابنه وزوج ابنته ، أما أوجسبورج موطن آل فوجر فإنها قدمت دفاعاً كلاسيماً عن المشروعات التجارية الكبيرة وحرية التجارة وعن الأراذل والأيتام :

« إن العالم المسيحى (أم ينبغى أن نقول العالم بأسره ؟) غنى بسبب العمل ، وكلما اتسع حجم العمل فى بلد ما ازداد رخاء شعبه . . . وحيث يكثر عدد التجار تزداد فرص العمل . . . ومن المستحيل تحديد حجم الشركات . . . فكلما اتسع حجم معاملاتها وازداد عددها كان هذا خيراً لكل إنسان . وإذا لم يكن التاجر مطلق الحرية فى القيام بأعماله فى ألمانيا فإنه سوف ينطلق إلى مكان آخر فتحسر ألمانيا . . . وإذا لم يستطع القيام بالعمل بعد أن يتجاوز قدره معيناً فماذا هو صانع بفائض أمواله ؟ . . . من الخير أن يترك التاجر وشأنه ، وألا توضع أية قيود على مقدراته أو على رأس ماله ،

إن بعض الناس يتحدثون عن تحديد طاقة الربح في الاستثمارات . وهذا سوف . . . يؤدي إلى ظلم فادح و ضرر بالغ بإبعاد معاش الأراامل والأيتام وبقية المعذبين الذين يستمدون دخلهم من الاستثمارات في هذه الشركات «(٤) .
وأصدر المجلس النيابي تشريعاً بالألا يزيد رأس مال الشركات عن ٥٠,٠٠٠ جيلدر وإلزامها بتوزيع الأرباح كل سنتين وتقديم حساب علني ، وألا يقرض المال بفوائد ربوية ، وألا يشتري تاجر أكثر من قدر معين من أية سلعة في أي فصل من فصول السنة ، وأن تحدد الأسعار بمقتضى قانون . واستعان التجار بشارل الخامس فأيدهم لأسباب سبق بيانها . ولما كان كثير من حكام المدن يشاطرون في أرباح الاحتكارات فإن مراسيم نورمبرج سرعان ما أصبحت حبراً على ورق .

وأرسل كليمنت السابع ، البابا الجديد ، إلى جلسة تالية للمجلس النيابي (يناير عام ١٥٢٤) الكردينال لورزو كامبيجيو ومعه مطالب جديدة بالقبض على لوثر ، وسخرت الجماهير من القاصد الرسولي في أوجسبورج واضطر إلى دخول تورمبرج سرّاً حتى يتجنب المظاهرات المعادية ، وكان من حظه الإذلال عند ما رأى ٣٠٠٠ شخص من بينهم شقيقة الإمبراطور يتلقون القربان المقدس بكلام نوعيه من راع من أتباع لوثر . فحذر المجلس النيابي من أن الثورة الدينية إذا لم تقمع في مهدها فإنها سوف تقوض دعائم السلطة المدنية وتهدم النظام ، ولكن المجلس النيابي رد عليه بأن أية محاولة لقمع الحركة اللوثرية بالقوة سوف تنتهي بـ « ثورة وعصيان ومذبحة . . . ودمار شامل »(٥) وبينما كانت تدور المداولات بدأت الثورة .

٢ - حرب الفلاحين

١٥٢٤ - ١٥٢٦

أتاحت الثورة الدينية للاكادحين في الحقول أيديولوجية تستهوى الأفئدة

وتعبر عن مطالبهم بالحصول على نصيب أكبر في رخاء ألمانيا المتزايد .
يضاف إلى هذا أن الشدائد التي كانت قد حفزت أهل الريف للقيام باثنتي عشرة ثورة ما زالت تثير إلى حد ما في ذهن الفلاح اضطراباً ، والحق أن هذا الاضطراب المحموم ازداد شدة في الوقت الذي تحدى فيه لوثر الكنيسة وانتهر الأمراء وحطم سدود النظام والرهبنة ، وجعل من كل إنسان قساً وأمان حرية الإنسان المسيحي . وكانت الكنيسة والدولة في هذا العهد بألمانيا مرتبطين ارتباطاً وثيقاً - وكان رجال الدين يلعبون دوراً كبيراً في النظام الاجتماعي والإدارة المدنية - إلى حد أن تفويض ما يتمتع به رجال الدين من هبة وسلطان قد أزال أكبر عائق للثورة . وقد استمر الولدانيون والبغارديون وإنخوة الحياة المشتركة في تقليد قديم يذهب إلى تأسيس آراء متطرفة من نصوص وردت بالكتاب المقدس . وكان تداول العهد الجديد مطبوعاً لظمة لطبقة المحافظين من رجال السياسة والدين ذلك لأنه فصح ما قام به رجال الدين من تراض مع طبيعة الإنسان وطرق العيش في الدنيا كما كشف عن شيوعية الرسل وعطف المسيح على الفقراء والمضطهدين . وكان العهد الجديد في هذه الأمور بمثابة « بيان شيوعي » حقيقي بالنسبة للمتطرفين في هذا العصر ووجد فيه الفلاحون وطبقة الكادحين على السواء ضماناً إلهياً لكي يحلموا بمدينة فاضلة (يوتوبيا) تلغى فيها الماكية الخاصة ويرث فيها الفقراء الأرض .

وفي عام ١٥٢١ وزع في ألمانيا كتيب عنوانه karsthans أي جون المدراة ، وقد ضمن الحماية للوثر هذا « الرجل ذو الفأس » والقلم ، ونشر في العام نفسه ملحق يدافع عن قيام أهل الريف بانتفاضة ضد الكشاكسة من رجال الدين^(٦) وطالب ينهانس إبرلين في كتيب آخر صدر عام ١٥٢١ بالتصويت العام للذكور ، وبتبعية كل حاكم وكل موظف للمجالس الشعبية المنتخبة ، وبإلغاء كل المؤسسات الرأسمالية ، وبالعودة إلى تحديد أثمان

الحيز والنبيد كما كانت في القرون الوسطى ، وبتعليم كل الأطفال اللاتينية واليونانية والعبرية والفلك والطب (٧) .

وصدر عام ١٥٢٢ كتيب عنوانه « احتياجات الأمة الألمانية » سب زوراً إلى الإمبراطور فرديريك الثالث المتوفى ودعا إلى إلغاء « كل المكوس والضرائب وجوازات السفر والغرامات » وإلغاء القانون الروماني والقانون الكنسي وتحديد حجم العمل في المؤسسات برأسمال قدره ١٠,٠٠٠ جيلدر وباستبعاد رجال الدين من الحكومة المدنية وبتصفية ثروة الأديرة وتوزيع المبالغ المحصلة على الفقراء (٨) . وأعلن أوتوبر ونفيلز (١٥٢٤) أن دفع ضرائب العشور إلى رجال الدين أمر مخالف لما جاء بالعهد الجديد . ومزج الوعاظ الإنجليزية البروتستانتية بالآمال اليوتوبية ، وكشف أحدهم أن اللجنة مفتوحة الأبواب للفلاحين ومغلقة في وجوه الأشراف ورجال الدين ، ونصح آخر الفلاحين بأن يكفوا عن إعطاء المال للقساوسة أو الرهبان ، وأشار منتسر وكارلشتادت وهوبماير على مستمعهم بأن « المزارعين والعاملين بالمناجم ودارسى الخنطة يفهمون نصوص الإنجيل وفي وسعهم أن يعلموها للناس خيراً من قرية بأسرها . . . من الرهبان والقساوسة . . . أو المتفقيين في اللاهوت » ، وأرد كارلشتادت يقول : « بل وخيراً من لوثر » (٩) . وتنبأت التقاويم وطائفة المنجمين بقيام ثورة عام ١٥٢٤ وكأنها كانت بهذا تعطى إشارة البدء في العمل . ومما يذكر أن يوهانس كوكلايوس وهو عالم إنسانيات كاثوليكي حذر لوثر عام ١٥٢٣ بأن « عامة الناس في المدن والفلاحين في الأقاليم سوف يقومون لا محالة بثورة . . . إذ سمعت أفكارهم الكتيبات والخطب التي لا تحصى والخافلة بالسباب والتي نشرت أو أعلنت بينهم بفصاحة وإطناب ضد السلطة البابوية والسلطة الزمنية على السواء » (١٠) . ولكن لوثر والوعاظ وموآلى الكتيبات لم يكونوا السبب في الثورة لأن الأسباب إنما تكمن بحق في المظالم التي حاقت بطبقة الفلاحين ، وإن كان من الممكن أن يقال إن إنجيل لوثر وأتباعه المتطرفين قد « صبوا الزيت على

الذهب» (١١) وحولوا استيلاء المضطهدين إلى أو هام يوتوبية وإلى عنف لم يكن في الحسبان وإلى انتقام شديد .

وتشبت سلوك توماس منتسر بكل إثارة حفل بها العصر ، فما أن عُنِين واعظاً في آلشتدت (١٥٢٢) حتى طالب بإبادة الكفار — أى الأرثوذكس أو المحافظين — بحد السيف وقال : « إن الكفار لاحق لهم في العيش إلا بقدر ما تسمح لهم بهذا الصفوة » (١٢) . واقترح على الأمراء أن يقودوا الشعب في ثورة شيوعية ضد رجال الدين والرأسماليين وعند ما لم يظهر الأمراء أنهم أهل لانتهاز هذه الفرصة استنفر الناس لقلب الأمراء أيضاً « ولكي يقيموا مجتمعاً مهذباً كالمجتمع الذي كان يفكر فيه أفلاطون . . . وأبيليوس مؤلف الحمار الذهبي » (١٣) وكتب يقول : « إن كل الأشياء على المشاع ويجب أن توزع حسب ما تقتضيه الحاجة وطبقاً للاحتياجات العديدة للجميع . وأى أمير أو كونت أو بارون يرغب عن قبول هذه الحقيقة بعد تذكيره بها في حزم يجب أن تقطع رأسه أو يشنق » (١٤) . وتسامح الأمير المختار فردريك في هذا الإنجيل وعده من قبيل الهزل ، ولكن أخاه الدوق جون وابن عمه الدوق جورج انضما في الرأي إلى لوثر بضرورة إقصاء منتسر عن وظيفته كراعى أبرشية (١٥٢٤) وأخذ الرسول الخائق يضرب في الأرض وينتقل من مدينة إلى مدينة ويعلن خلاص « إسرائيل » وقرب ظهور مملكة الرب على الأرض (١٥) .

ووجد في مدينة ميلهاوزن الحرة في نورينجيا مناخاً سياسياً لطيفاً ، فهناك جمعت صناعة النسيج عدداً كبيراً من طبقة الكادحين ، وكان هينريخ بفيفر ، وهو راهب سابق ، قد بدأ هناك حركة لانتزاع المجلس البلدى من أيدي الأقلية من الأشراف . وبشر منتسر ببرنامج المتطرف عمال المدينة وطبقة الفلاحين في المناطق المجاورة ، وفي يوم ١٧ من مارس عام ١٥٢٥ خلع أتباع بفيفر ومنتسر المسلحون الأشراف وأقاموا « مجلساً دائماً » ليحكم ميلهاوزن .

وطبقاً لما يقوله ميلانكتون طرد المتطرفون المظفرون الرهبان وجردوا الكنيسة من أملاكها (١٦) ، ومهما يكن من أمر فلم يكن من المستطاع الوثوق بعالم من علماء اللاهوت في هذا العصر ، ليقدم بلا تحيز تقريراً عن أعمال الخصوم ووجهات نظرهم ولم تنشأ جامعة أمم (كومونويلث) شيوعية ، وأثبت بفيفر أنه أقدر في الناحية العملية من منتسر ، وطوع الثورة للوفاء بحاجات الطبقة المتوسطة . وتوقع منتسر مسبقاً مهاجمة الفرق الإمبراطورية ، فنظم جيشاً من العمال والفلاحين وأعد له طائفة من رجال المدفعية الثقيلة في دير « الرهبان الحفاة » وكانت الصيحة التي أطلقها بين رجاله هي « إلى الأمام والحديد لا يزال ساخناً واجعلوا سيوفكم دائماً ساخنة بالدماء » (١٧) .

وفي نحو هذا الوقت نفسه كانت ثورات الفلاحين تزداد جنوب ألمانيا ، ولعل عاصفة البرد الهوجاء (١٥٢٤) التي قضت على كل الآمال المعقودة بلخي محصول في شتيلنجن كانت بمثابة الزناد الذي أشعل نار الثورة . ولم تكن هذه المقاطعة القريبة من شافهاوزن تبعد كثيراً عن سويسرة لكي يشعر أهلها مثل الفلاحين الأشداء الذين كانوا قد حرروا أنفسهم هناك من كل شيء إلا مظاهر السلطة الإقطاعية . وفي ٢٤ أغسطس عام ١٥٢٤ جمع هانز ميلر حوله بعض الفلاحين من شتيلنجن بناء على إيحاء من منتسر وكون لهم رابطة باسم « الأخوة الإنجيلية » وتعهد بتحرير المزارعين في أرجاء ألمانيا ، وسرعان ما انضم إليهم المستأجرون الساخطون من راهب ريخيناو وأسقف كونستانس وكونتات فردينبورج ومونتفورت ولوبفين وسولتس . وما أن انتهى عام ١٥٢٤ حتى كان هناك حوالي ٣٠,٠٠٠ فلاح مدججين بالسلاح في جنوب ألمانيا ، ورفضوا دفع الضرائب التي تفرضها الدولة وضرائب العشور الكنسية والضرائب الإقطاعية وأقسموا على الظفر بالحرية أو الموت ، وفي مارس ١٥٢٥ صاغ في ميمينجن مندوبوهم ، بإرشاد البروتستانت من أتباع تسفينجلى أو بتأثيره ، البنود الاثني عشر التي أشعلت النار في نصف ألمانيا .

« إلى سلام القارئ المسيحي ورحمة الله من خلال المسيح » .

هناك الكثيرون من المناهضين للمسيحية انتهزوا أخيراً فرصة انعقاد مجلس للفلاحين لازدراء الإنجيل قائلين أليس هذا ثمرة الإنجيل الجيد؟ وهل لا بد ألا يمثل أحد وأن يتمرد الجميع . . . لقلب السادة الروحيين والزمنيين أو ربما لقتلهم؟ إن كل النقاد الكافرين والأشرار يجدون الجواب على هذه الأسئلة في البنود التالية لكي يزيلوا أولاً هذا اللوم عن كلمة الله وثانياً ليبرروا بطريقة مسيحية عدم امتثال الفلاحين بل وثورتهم .

فأولا نمر ب أن ملتمسنا وطلبنا المتواضع وأن إرادتنا ومشيتنا جميعاً هي أن يتحقق لنا في المستقبل قوة وسلطان يهبان للجماعة بأسرها أن تختار راعياً وأن تعينه وأن يكون لها الحق في عزله . . .

ثانياً : بما أن ضريبة العشور قد نص عليها العهد القديم ووردت في العهد الجديد فإننا سوف . . . ندفع ضريبة العشر من الحبوب ولكن بطريقة صحيحة . . . وسوف يجمع هذه في المستقبل ويتسلمها رئيس كنيستنا الذي تعينه الجماعة ومن هذه الضريبة يجب أن يمنح الراعي . . . مرتباً متواضعاً وكافياً لمعيشته هو وأسرته . . . وأن يوزع الباقي على الفقراء والمحتاجين الذين يعيشون في القرية نفسها . . . أما ضريبة العشر الصغيرة فلن ندفعها على الإطلاق ، لأن الله قد خلق الماشية لكي ينتفع بها الناس دون قيد . . .

ثالثاً : لقد جرت العادة حتى الآن على أن يعتبرنا الناس متاعاً خاصاً لهم ، وهذا أمر يدعو للأسى ، لأن المسيح كفر عن سيئاتنا جميعاً وافتدى بدمه الزكي المراق الأذنياء والعظماء على السواء . . . ومن ثم فإنه مما يتفق وتعاليم الكتاب المقدس أن نكون أحراراً ولسوف نكون أحراراً (هـ.كذا) . . . ونحن نخضع عن طواعية لحكامنا المختارين والمعيّنين (الذين عينهم لنا الله) في جميع الأمور المسيحية الصحيحة ولا نخاطبنا أية ريبة في أنهم سوف يحررونا من نير العبودية أو يريننا في الإنجيل أننا أرقاء . . .

سادساً : أن لنا شكوى مريرة بسبب الخدمات التي تزايد من يوم إلى آخر . . .

ثامناً : لقد لحق بنا ضرر بليغ لأن الكثيرين منا مستأجرون أراضي لا تكفي غلتها لسداد قيمة ما ندفعه من إيجار لها ولأن الفلاحين يتعرضون للخسارة والحراب . فليدع السادة أناساً من الشرفاء يفحصون الأراضي المستأجرة المذكورة ويحددون الإيجار العادل . . . لأن كل عامل يستحق أجره . . .

عاشراً : لقد أصبنا بضرر بالغ لأن البعض انتزعوا لأنفسهم ملكية مراعي من الحقول المشاعة والتي كانت يوماً ملكاً للجماعة . . .

حادى عشر : سوف نعمل على إلغاء الضرائب المفروضة على الوفاء بإلغاء تاماً . ولن نتحملها ولن نسمح بنهب أموال الأراذل والأيتام على هذا النحو المخجل .

ثانى عشر : إذا تبين لنا أن ثمة خطأ فى بند أو أكثر من البنود الموضحة بفضيل كلمة الله فإننا نراجع عنها إذا أيدت لنا هذا أدلة من الكتاب المقدس (١٨) .

وتشجع زعماء الفلاحين بتصريحات لوثر نصف الثورية وبعثوا إليه بنسخة من البنود وطلبوا منه أن يناصرهم ، فرد عليهم بكتيب نشر فى إبريل عام ١٥٢٥ وعنوانه : « تنبيه إلى السلام » وأثنى على عرض الفلاحين بالخضوع لأى قصاص ينص عليه الكتاب المقدس وتعرض للاتهامات التى وجهت وقتذاك إلى خطبه ومقالاته بأنها قد أشعلت نار الثورة فأنكر مسئوليته عنها وأشار إلى أنه كان يحث الناس على الخضوع للسلطة الدينية وراكنه لم يسحب نقده للطبقة الحاكمة وقال :

« لا يوجد على ظهر البسيطة من نشكره على هذه الثورة الحبيثة إلا أنتم أيها الأمراء والسادة ، وبخاصة أنتم أيها الأساقفة العميان والقساوسة والرهبان

المجانين يا من قست قلوبكم على الإنجيل المقدس رغم أنكم تعلمون أن ما جاء به صحيح وأنكم لا تستطيعون أن تدحضوه . وفضلاً عن هذا فإنكم في حكومتكم الزمنية لم تفعلوا شيئاً إلا التنكيل برعاياكم وسلب أموالهم لكي تنعموا بعيشة رغدة ترضى كبرياءكم . لقد فاضت الكأس حتى لم يعد الفقراء من عامة الناس يتحملون أكثر من ذلك . وإذن ما دمتم السبب في سخط الله فإن غضبه تعالى سوف يحقق بكم لا محالة إذا لم تصاحبوا من وسائلكم في الوقت المناسب .

إن الفلاحين يحشدون قواهم ولا بد أن يؤدي هذا إلى خراب ألمانيا ودمارها وتحطيمها بقتل الناس في قسوة وسفك الدماء ما لم يقبل الله توبتنا ويجنبنا هذا المصير « (١٩) .

ونصح الأمراء والسادة الإقطاعيين بأن يعترفوا بعدالة كثير من البنود وحثهم على انتهاج سياسة تتسم بالرأفة ، ووجهه إلى الفلاحين خطاباً صريحاً أقر فيه بما أصابهم من أضرار ، وإكته توسل إليهم أن يحجموا عن استخدام العنف وعن الانتقام ، وتنبأ بقوله إن الالتجاء إلى العنف سوف يترك الفلاحين في وضع أسوأ مما كانوا فيه من قبل . وتنبأ أيضاً بأن أي ثورة سوف تصم بالعار حركة الإصلاح الديني وأنه سوف يلام على كل شيء . وعارض استيلاء كل أبرشية على ضرائب العشور وقال إنه يجب على الناس الخضوع للسلطات إذ أن لها الحق في فرض ما تراه من ضرائب لمواجهة نفقات الحكومة وأن حرية الرجل المسيحي يجب أن تفهم على أنها حرية روحية لا تتعارض مع العبودية بل ولا الرق . وقال :

ألم يتخذ إبراهيم وأبناؤه الآخرون والأنبياء عبيداً ؟ اقرأ ما يعلمه لنا القديس بولس عن الخدم الذين كانوا جميعاً أرقاء في ذلك العهد . . . ومن ثم فإن بندكم الثالث لا يسرى على الإنجيل فهذه المادة تساوي بين الناس جميعاً وهذا مستحيل ، فلاك لأن مملكة دنيوية لا تستطيع أن تقف على قدميها

ما لم تكن هناك درجات متفاوتة بين الأشخاص بحيث يكون البعض منهم أحراراً والبعض مسجونين والبعض سادة والآخرون رعايا (٢٠) .

ولو اتبعت نصيحته الأخيرة لجنبت ألمانيا كثيراً من سفك الدماء والدمار :

« تخيروا من الأشراف بعض الكونتات واللوردات ومن المدن بعض أعضاء المجلس وعالجوا هذه الأمور وأحسموها بطريقة ودية . وأنتم أيها السادة تخلوا عن عنادكم وأقلعوا قليلاً عن طغيانكم واضطهادكم حتى يتنفس الفقراء من الناس ويجدوا متسعاً للعيش . وعلى الفلاحين بدورهم أن يعلموا أنفسهم وأن يتخلوا عن بعض المطالب التي تدق على فهمهم وترتفع عن مستوى إدراكهم (٢١) .

ومهما يكن من أمر فإن زعماء الفلاحين شعروا بأن الأوان قد فات للتراجع عما اعتزموه لأنهم سيتعرضون للعقاب عاجلاً أو آجلاً في أية مصالحة . وأحزنهم هذا التحول من لوثر وعدوه خائناً واستمروا في الثورة . وتشبت بعضهم حرفياً بحلم المساواة : كان على الأشراف أن يجردوا قلاعهم من السلاح ويعيشوا كما يعيش الفلاحون وأوساط الناس وكان عليهم أن يكفوا عن امتطاء صهوات الجياد لأن هذا يرفعهم فوق مصاف أتباعهم . وكان لا بد من إبلاغ القساوسة أنهم منذ ذلك الوقت نخدم لرعايا أبرشياتهم لا سادة لهم وأنهم سوف يطردون إذا لم يتشبهوا بنصوص الكتاب المقدس فحسب (٢٢) . وانهالت المطالب بالبريد من العمال في المدن ، ونددت باحتكار الأغنياء للوظائف في المدينة ، وباحتلاس الموظفين المنحرفين للأموال العامة وبارتفاع الأسعار الدائم في الوقت الذي ظلت فيه الأجور ثابتة لا تتغير . وقال أحد المتطرفين لسوف يكون من الخير لخلاص الروح ألا يكون البطارقة على هذه الدرجة من الثراء وألا يعيشوا في مثل هذه الرفاهية وأن تقسم أملاكهم على الفقراء » . واقترح فندل هبار وفرديك فايجانانت تصفية

كل أملاك الكنيسة للوفاء بالحاجات الدنيوية وأن تلغى كل الرسوم للنقل والرسوم الجمركية وألا يستخدم في كل أنحاء أوروبا إلا نوع واحد من الشبكة ونظام واحد من الأوزان والمكاييل (٢٤) .

وكان يتزعم هذه الحركة زعماء مختلفو المشارب : كان هناك اثنان من أصحاب الخانات هما جورج ميتزلر وميترن فويرباخر ، وكان هناك جييكلاين رورباخ الخراط الطروب ، وبعض قدامى الجنود والقساوسة السابقين وفارسان من عصابة سيكنجن المهزومة - فلوريان جير وجيتز فون برليخنجن « ذو اليد الحديدية » و شاء القدر أن يقع اختيار هاوبمان وجيته فيما بعد على هذين الرجلين فجعلنا منهما بطلين لمسرحيات شائعة . وكان كل زعيم مطلق السلطان بين جماعته ، وقلما كان يوفق بين عمله وعمل الآخرين ، ومع ذلك فان الثورة اشتعلت في ربيع عام ١٥٢٥ في اثني عشرة منطقة متفرقة في نفس الوقت ، واستولت جماعة من العمال على السلطة الإدارية في البلدية في هايلبرون وروتنبرج وفيرتسبورج ، وأعلنت حكومة الكومون الظافرة في فرانكفورت على الماين أنها سوف تمثل منذ ذلك سلطة المجلس البلدى والعمدة والبابا والإمبراطور مجتمعين . وفي روثنبورج طرد القساوسة من الكاتدرائية وحطمت التماثيل الدينية وهدمت بيعة وسويت بالأرض (٢٧ مارس سنة ١٥٢٥) وأفرغ الناس مخازن النبيذ التي يملكها رجال الدين وهم منتشون بخمر النصر (٢٥) . وتخلت المدن الخاضعة للسادة الإقطاعيين عن ولائها لهم ونادت المدن الخاضعة للأساقفة بإنهاء امتيازات رجال الدين ، وثار غضباً مطالبة بتخصيص أملاك رجال الدين للأغراض الدنيوية ، وانضمت دوقية فرانكونيا بأسرها تقريباً إلى الثورة . وأقسم كثير من السادة والأساقفة ممن لم يستعدوا للمقاومة ، أنهم يقبلون الإصلاحات المطلوبة منهم ، وذلك من أمثال أساقفة سبير وبامبرج ورهبان دير كيمبتين ودير هرتسفيلد وأعتق الكونت ويليام الهنبرجى أرقاه واستدعى الكونت جورج والكونت ألبرخت

الهو هنلوهى للمثول أمام زعماء الفلاحين للانخراط في سلك الهيئة الجديدة وقالوا : « تعال هنا أيها الأخ جورج والأخ ألبرخت وأقسما للفلاحين أن تكونا لهم كالإخوة لأنكما لم تعودا الآن سيدين بل أصبحتما فلاحين » (٢٦) . واستقبلت معظم المدن ثورات أهالي الريف بترحيب قلبي ، وأيد الثورة كثير من رجال الدين من الرتب الدنيا الذين كانوا يمقتون السلطة الكهنوتية ، ووقعت أول مواجهة خطيرة في لايبهايم على نهر الدانوب قرب أولم (٤ أبريل سنة ١٥٢٥) إذ استولى على المدينة ٣٠٠٠ فلاح تحت لواء قسيس ناشط هو جاكوب فيهي واحتسوا كل ما عثروا عليه من نبيذ ونهبوا الكنيسة وحطموا الأرغن وصنعوا لأنفسهم طزالق من الثياب الكهنوتية وبايعوا في سخرية واحداً من جمعهم أجناس على المذبح ، وارتدى مسوح قسيس (٢٧) . وقام بحصار لايبهايم جيش من الجنود المرتزقة استأجرته العصابة السوابية ويقوده جورج فون تروخسيس وهو قائد قدير ، وأفرغ الفلاحين غير المدربين فاستسلموا وقطعت رؤوس فيهي وأربعة من الزعماء الآخرين ، أما الباقون فقد عفت العصابة عنهم ، وإن كانت فرقها قد أحرقت كثيراً من أكواخ الفلاحين .

وفي يوم الجمعة الحزينة ١٥ أبريل سنة ١٥٢٥ قام بحصار مدينة فايتسبرج (قرب هايلبرون) ثلاثة من جماعات الثوار تحت قيادة متسلر جيير ورورباخ ، وكان يحكم هذه المدينة الكونت لودفيج فون هلفشتاين الذي كان يمقتة الناس بسبب قسوته وشدته . واقرب من الأسوار وفد من الفلاحين وطلب المفاوضة فقام الكونت وفرسانه بهجوم مفاجيء وذبحوا كل أعضاء الوفد . وفي يوم الأحد الموافق لعيد الفصح اقتحم المهاجمون الأسوار بمساعدة بعض أهالي المدينة ومزقوا أجساد الأربعين رجلا المدججين بالسلاح ، والذين اهتموا بالمقاومة وأسر الكونت وزوجته (وهي ابنة الإمبراطور الراحل ماكسميليان) وستة عشر فارساً ، وأصدر رورباخ ، دون مشاورة متسلر

أو بجير ، أمراً للبيعة عشر رجلاً بالمرور بين صفيين من الفلاحين المسلحين بالحرايب لتأديبهم ، وعرض الكونت أن يقدم كل أمواله فدية لهم ولكن هذا العرض رفض كوسيلة مؤقتة ، وتوسلت إليه الكونتيسة في تدال شحوم أن يبقى على حياة زوجها ولكن رورباخ أمر اثنين من رجاله بأن يسنداها حتى تشهد نشرة الانتقام . وبينما كان الكونت يسير إلى حنقه وسط وابل من الحناجر والرماح ذكره الفلاحون بما ارتكب من أعمال وحشية وصاح أحدهم : « لقد ألقيت بأخي في غياهب السجن لأنه لم يرفع قيمته من على رأسه وأنت تمر به » . وصرخ آخرون : « لقد سخرتنا كالثيران في نير العبودية . . . لقد قطعت يدي والدي لأنه قتل أرنبا في حقلك . . . لقد داست خيولك وكلابك وصيادوك محاصيلي . . . لقد استنزفت منا آخر بنس لدينا » . وفي خلال نصف الساعة القادمة لتي الستة عشر فارساً حتفهم بالمثل . أما الكونتيسة فقد سمح لها بأن تنسحب إلى دير (٢٨) .

كانت عصابات الفلاحين تثير الشعب في كل أرجاء ألمانيا تقريباً . ونهبت الأديرة أو أكرهت على دفع مبالغ كبيرة على سبيل الفدية . ويقول بعضهم في خطاب أرسل يوم ١٧ أبريل عام ١٥٢٥ : « في كل مكان يجاهر الثأرون . . . بنيتهم في قتل كل رجال الدين الذين لا يتصلون من ولائهم للكنيسة ويعلمون عن عزمهم على تدمير كل الأديرة وقصور الأساقفة واستئصال شأفة الدين الكاثوليكي تماماً من البلاد » (٢٩) . ولعل في هذا شيئاً من المبالغة ولكن في وسعنا أن نسجل أن الثوار استولوا على كثير من المدن وأكروهوا الأرشيدوق فرديناند على الموافقة على أن يكون الوعظ منذ ذلك الوقت طبقاً لنصوص الكتاب المقدس - وهو مطلب برونستاني نحاس وذلك في بافاريا والنمسا والتيرول حيث لقيت البروتستانتية اضطهاداً ظاهراً . وفي ماينز فر كبير الأساقفة ألبرخت ولم يستطع مواجهة العاصفة وإن قام نائبه بإنقاذ كرسي الأسقفية وذلك بتوقيع المطالب الاثني عشر وبتفويض فدية قدرها ١٥,٠٠٠ جيلدر ، وفي الحادي عشر من شهر أبريل رفض أن يمد مدينة

بامبرج الاعتراف بسلطة الأسقف الإقطاعية ونهبوا قصره وأحرقوه وجردوا بيوت المحافظين من رجال الدين مما فيها وانتشرت الثورة في الألزاس انتشار النار في الهشيم ، وما إن أشرف شهر أبريل على نهايته حتى أصبح كل كاثوليكى وكل مالك ثرى فى المقاطعة يخشى على حياته . وفى الثامن والعشرين من شهر إبريل هاجم جيش عدته ٢٠,٠٠٠ من الفلاحين زابرن مقر أسقف ستراسبورج ونهبوا ديره وفى يوم ١٣ مايو استولوا على المدينة وأجبروا كل رجل رابع على الانضمام إليهم ورفضوا دفع كل ضرائب العشور وطالبوا بانتخاب جميع الموظفين فيما بعد عدا الإمبراطور عن طريق الاقتراع الشعبى وبأن يكونوا عرضة للعزل (٣٠) .

وفى بريكسين بالتيروول نظم ميكائيل جاسماير ، وهو سكرتير سابق للأسقفية ، ثورة هاجمت كل رجال الدين المحافظين ونهبت الدير المحلى (١٢ مايو) وظلت عاماً تهدد الأمن ، ولا يستطيع أحد قمعها . ويقول أحد المؤرخين فى هذا العهد ممن كانوا لا يتعاطفون مع الثوار إنه فى جميع أودية نهري اين واتش كانت هناك - جماهير غفيرة وصراخ وهرج شديدان وكان من الصعب على أى إنسان صالح أن يسير فى الطرقات وقال إن السلب والنهب أصبحتا شائعتين إلى الحد الذى كان فيه الأتقياء يشعرون بالإغراء للاشتراك فيهما» (٣١) . وفى فرايبورج - أم - برايسجاو نهب الفلاحون القلاع والأديرة وأكروها المدينة على الانضمام إلى « الأنحوة الإنجيلية » ، (٢٤ مايو) وفى الشهر نفسه أقصت عصاة من الفلاحين أسقف فيرتسبورج عن قصره وأقاموا وليمة بما عثروا عليه فى مخازنه . وفى شهر يونيو أقصى ماتياس لانج كبير الأساقفة المعروف بحبه للقتال من قصره إلى قلعته التى تشرف على المدينة ، وفى نيوشتادت فى اليلاتينيت دعا الأمير المختار لودفيج زعماء الفلاحين للعشاء بعد أن أحاط به ٨٠٠٠ منهم واستجاب لمطالبهم دون امتعاض (٣٢) .

وفى هذا قال أحد المعاصرين : « ها نحن أولاء نرى أهالى القرى وسيدهم

يجلسون جنباً إلى جنب ويأكلون ويشربون معاً ويبدو أنه يكن لهم مشاعر الود وأنهم يبادلونه هذا الشعور .

وفي وسط هذا السيل من الأحداث أصدر لوثر من مطبعة فيتنبرج نحو منتصف مايو عام ١٥٢٥ كتيباً عنوانه : « معارضة لجموع الفلاحين التي تقوم بالسلب والقتل » . وأفزعت لهجته الحادة الأمير والفلاح والأسقف وعالم الإنسانيات على السواء فقد راع لوثر تزايد العصاة الساخطين وخشى وقوع انقلاب ضد كل سلطة شرعية وحكومة في ألمانيا وآلمته الاتهامات التي تقول إن تعاليمه الخاصة قد أطلقت الفيضان من عقاله فتحول وقتذاك دون تحفظ إلى جانب السادة المعرضين للخطر وقال : « لم أجسر في كتاب سابق على الحكيم على الفلاحين لأنهم عرضوا أن يسلكوا الطريق المستقيم وأن يتعلموا . . . ولكن قبل أن أتطلع حولي تناسوا ما عرضوه وعمدوا إلى العنت وقاموا بالسلب والنهب وأسلموا قيادهم إلى الهياج وتصرفوا كالكلاب المسعورة . . . إن ما يقومون به من عمل الشيطان بل إنه بصفة خاصة من عمل إبليس (منتسر) الذي يحكم في ميلهاوزن . . . يجب أن أبدأ بوضع خطاياهم أمام أعينهم . . . ثم يجب أن أعلم الحكام كيف يسوسون أنفسهم في هذه الظروف . . . »

إن أي إنسان يمكن إثبات شغبه يعد خارجاً على سنة الله وقانون الإمبراطورية ومن ثم فإن أول من يقتله يفعل خيراً ولا يرتكب إثماً . . . ذلك لأن الثورة تأتي معها بأرض مليئة بالقتل وسفك الدماء وترمل النساء وتيم الأطفال وتقلب كل شيء رأساً على عقب . . . ولهذا دعوا أي إنسان يستطيع أن يقتل ويذبح ويطعن ، سرّاً وعلناً ، وضعوا نصب أعينكم أنه لا شيء أكثر فتكاً أو ضرراً أو خبثاً من الثورة . . . إن هذا لا يختلف عن حالة المرء الذي يجد نفسه مضطراً إلى قتل كلب مسعور وإذا لم تضربه فإنه سوف يقضى عليك ومعك بله بأسره . . . »

ورفض التسليم بإجازة الكتاب المقدس المزعومة للشيوع وقال : « إن

الإنجيل لا يجعل الأمتعة على الشيوع إلا بالنسبة لمن يفعلون ، بإرادتهم الحرة ، ما كان الرسل والحواريون يفعلونه في الإصحاح الرابع . لأنهم لم يطلبوا مثل فلاحينا المجانين في سورة غضبهم عند ما يطالبون بأن تكون أمتعة الآخرين سواء كانت لبيلاطس أم لهيرون - مشاعا لهم وأنهم لم يطلبوا تطبيق هذا إلا على أمتعتهم . ومهما يكن من أمر فإن فلاحينا سوف يحصلون على أمتعة الآخرين باعتبارها مشاعاً لهم ويحتفظون بأمتعتهم لأنفسهم ، فما أروع هؤلاء من مسيحيين ! أعتقد أنه لم يبق شيطان في الجحيم وأن الشياطين جميعاً قد انطلقت إلى الفلاحين .

أما الحكام الكثرالكة فإنه عرض عليهم غفرانه إذا قضوا على العصاة دون محاكمة . وأوصى الحكام البروتستانت بالصلاة والندم والمفاوضة ولكن إذا ظل الفلاحون على عنادهم : « عندئذ سارعوا بامتساق الحسام لأن أي أمير أو سيد يجب أن يتذكر في هذه الحالة أنه كاهن لله وأنه أداة نقمته تعالى (الرومان ١٣) اللتي يمتشق من أجله الحسام لضرب رقاب هؤلاء الأتباع ... وإذا كان في وسعه أن يعاقب ولا يفعل - حتى لو كان العقاب أن يستل الحياة ويسفك الدماء - فإنه يبوء بآثم كل جرائم القتل والشروع التي يرتكبها هؤلاء الأتباع . . . وعندئذ على الأتباع أن يستمروا بلا اكتراث ودون أن يعدبهم الضمير في النضال كالأبطال ما دامت قلوبهم تحقق بين ضلوعهم . . . وإذا خطر لأحد أن هذا صعب جداً فليتكلم أن الثورة لا تحتل وأن دمار العالم أمر متوقع في كل ساعة » (٣٣) .

وكان من سوء حظ لوثر أن تصل هذه الرسالة الغاضبة إلى قرائها في الوقت الذي بدأت فيه الطبقات المالككة في إخضاع الثورة . وتلقى المصلح ثناء لا يستحقه على الإرهاب بالقمع ومن غير المحتمل أن يكون السادة المعرضون للخطر قد تأثروا بالكتيب إذ كانوا بطبعهم يميلون إلى معاملة العصاة بقسوة تكون رادعاً لهم ولا تمحى ذكراها من أذهانهم وقد أخذوا

بعض الرقت يعللون الفلاحين البسطاء بالوعود والأمانى وبهذا أغروا الكثير من العصابات بالتفرق وفي غضون ذلك نظم السادة جيوشهم وسلحوها .

وفي ذروة الفتنة مات فردريك الأمير المختار (٥ مايو عام ١٥٢٥) وكان رجلاً هادئاً يؤثر السلام ويسلم بأنه هو وباقي الأمراء قد ظلموا الفلاحين ورفض أن ينضم إليهم في اتخاذ إجراءات الانتقام وترك خلفه اللدوق جون نصائح ملحة بالتزام الاعتدال ، بيد أن الأمير المختار الجليلي شعر بأن سياسة أخيه كانت تعتمد على اللين وهو أمر يجافي الحكمة فانضم بقواته إلى قوات هنري دوق برونزفيلك وفيليب لاندجريف الهسي وزحفوا جميعاً لمهاجمة معسكر منتسر خارج ميلهاوزن . وكانت جيوش الخصوم لا تفرقهم إلا عدداً . - كان كل منها يتكون من ٨٠٠٠ رجل من الأشداء ، بيد أن معظم الرجال في قوات اللدوقات كانوا من الجنود المدربين ، بينما كان الفلاحون ، على الرغم من مدفعية منتسر البسيطة ، يتسلحون بأسلحة ليست جيدة أو رديئة ويفتقرون إلى النظام ويتفشى بينهم الاضطراب بسبب ما يساورهم من رهبة بالسليقة . واعتمد منتسر على فصاحته ليقوى من عزائم الفلاحين وأمهم في الصلاة وفي ترتيل الأناشيد وأطلقت مدفعية الأمير أول ستار من نيرانها فصرعت مئات من النوار وفر الباقون مذعورين إلى مدينة فرانكهاوزن (١٥ مايو سنة ١٥٢٥) وطاردهم المنتصرون وقتلوا منهم ٥٠٠٠ وحكم على ثلاثمائة أسير منهم بالإعدام فتشفع لهم نساؤهم والتمسوا العفو عنهم رحمة بن ، فأجبن إلى طلبهن على شريطة أن تحطم النساء رأسى قسيسين كانا قد حرضا على الثورة وتم تنفيذ هذا بينما كان اللدوقات المنتصرون يرقبون هذا المشهد^(٣٤) . واختفى منتسر ثم قبض عليه وعذب حتى أقر بخطأ وسأله ثم قطع رأسه أمام القادة والأمراء ودافع بفيفر ومعه ١٢٠٠ جندي عن مدينة ميلهاوزن ولكنهم غلبوا على أمرهم ، وأعدم بفيفر وباقي القواد أما المواطنون فقد نالوا العفو على أن يدفعوا فدية إجمالية قدرها ٤٠,٠٠٠ جيلدر (١,٠٠٠,٠٠٠ دولار ؟) .

وفي غضون ذلك استولى تروخسيس على مدينة بيبلينجن (Böblingen) بطريق المفاوضات وحول مدافعه من داخل أسوار المدينة وأطلقها على معسكر للثوار خارجها (١٢ مايو) ، وأجهز فرسانه على الفلاحين الذين نجوا من نيران هذه المدفعية وقضى هنا على الثورة في فيرتمبرج . ثم تحول تروخسيس إلى فاينزبرج وأحرقها حتى سويت بالأرض وشوى في بطاء جسد جييكلاين رورباخ الذي تزعم « مندحة فاينزبرج » . ثم زحف تروخسيس ليهزم قوات الفلاحين في كينجزهوفن وانجولشتادت هزيمة منكرة ، واستولى على فيرتمبورج وأطاح برعوس واحد وثمانين من الثوار اختارهم ليكونوا عبرة للآخرين (٥ يونية) . وفر فاوريان جيير من فيرتمبورج ليعيش في غياهب النسيان وظل أسطورة يرددتها الناس في إعرزاز واستسلم جيتزفون برليخنجن في الوقت الملائم وعاش ليحارب مع شارل الخامس ضده الأتراك ومات على فراشه وفي قلعته بالغاً من العمر اثنين وثمانين عاماً (١٥٢٦) وسقطت مدينة روتمبرج في ٢٠ يونيه وسرعان ما تلاها مدينة ممينجن وسحقت الثورة في الألزاس بعد مصرع ٢٠٠٠ إلى ٦٠٠٠ رجل في ليبشتلين وتسابيرن (Zabern) (١٧ - ١٨ مايو) وما أن حل يوم ٢٧ مايو حتى كان قد قتل نحو ٢٠,٠٠٠ فلاح في الألزاس وحدها وفي كثير من الحالات كان هواء المدن تشيع فيه رائحة الموت (٣٥) وأمر ماركجراف كاسيمير Markograf Casimir بقطع رؤوس بعض من استسلم من فلاحيه وشنق البعض الآخر . وفي الحالات المخزنة قطع أيديهم أو سجل عيونهم (٣٦) ، وتدخل الأمراء العقلاء في آخر الأمر في تخفيف همجية الانتقام ، وفي نهاية شهر أغسطس أصدر المجلس النيابي في أوجسبورج أمراً كتابياً حث فيه على الاعتدال في توقيع العقوبات وفرض الغرامات وتساءل شريف فيلسوف قائلاً : « أين نجد فلاحين يقومون بالوفاء لأغراضنا إذا قتل كل الثوار ؟ (٣٧) .

واستمرت الثورة عاماً في النمسا وفي يناير عام ١٥٢٦ أعلن ميكايل جاسماير في أنحاء التيرول أعظم البرامج الثورية تطرفاً وقال : « يجب القضاء

على كل الكفار (أى غير البرتستانت) الذين يضطهدون « كلمة الله »
الحقة أو يظلمون الرجل العادى . ويجب أن تزال الصور والمزارات من
الكنائس وألا تتلى القداسات ويجب أن تهدم أسوار المدن والأبراج والحصون
وألا تبقى إلا القرى وأن يتمتع جميع الناس بالمساواة . ويجب اختيار الموظفين
والقضاة بالاقتراع العام الذى يشترك فيه الذكور البالغون كما يجب إيقاف
دفع الإيجارات والمكوس للسلادة الإقطاعيين فوراً وأن تجمع ضرائب
العشور على أن تعطى لسلطات الكنيسة التى خضعت الإصلاح الدينى
وللفقراء . ويجب أن تحول الأديرة إلى مستشفيات أو مدارس ، أما المناجم
فيجب أن تؤمم وعلى الحكومة أن تحدد الأسعار (٣٨) . وقدر لحاسماير أن يهزم
التي أرسلت لقتاله باستراتيجية ذكية ، واستمر هذا الحال بعض الوقت غير
الفرق أن أعداءه تفوقوا عليه أخيراً فى الدهاء وفر إلى إيطاليا وأفرد الأرشيدوق
فرديناند ثمناً لرأسه وفاز بالمبلغ اثنان من القتلة الإسبانين عند ما اغتالاه
فى غرفته ببادوا (١٥٢٨) .

ولم تفقد ألمانيا من الأرواح والأملاك ما فقدته فى ثورة الفلاحين إلا فى
حرب الثلاثين عاماً . فقد هلك من الفلاحين وحدهم نحو ١٣٠٠٠٠ فى
ساحة القتال أو على نطع التكفير ، وتم تنفيذ حكم الإعدام فى ١٠٠٠٠
رجل تحت حكم العصبة السوابية . وامتألت أعطاف جنلاد تروخسيس زهوا
لأنه قتل بيديه المدربتين ١٢٠٠ رجل محكوم عليه بالإعدام . أما الفلاحون
أنفسهم فقد دمروا مئات القلاع والأديرة وأقمرت مئات القرى والمدن . من
ساكنها أو أصبحت خراباً بلقماً أو فرضت عليها تعويضات باهظة ، وتشرد
ما يزيد على ٥٠٠٠٠ فلاح وأخذوا يهيمون فى الطرقات العامة أو يختبئون
فى الغابات ، وترملت آلاف النساء وتيم الآلاف من الأطلال واكن قاوب
المحسنين لم ترق لهم ، أو لعل جيوبهم كانت نخاوية وكان المتمردون قد
أحرقوا فى كثير من الحالات الموثيق التى تسجل الضرائب المستحقة عليهم

للسادة الإقطاعيين فحررت وثائق جديدة أحييت من جديد هذه الالتزامات وكانت في بعض الحالات أكثر رفقا بهم وفي أحيان أخرى أكثر تشدداً عما كانت عليه من قبل ومنحت امتيازات للفلاحين في النمسا وبادن وهس أما في المناطق الأخرى فقد اشتد أزر العبودية وقدر لها أن تستمر شرق الألب حتى القرن التاسع عشر . وأجهضت بوادر الديمقراطية وقمعت الحركات الفكرية واشتدت الرقابة على النشر في عهد السلطات الكاثوليكية والبروتستانتية على السواء . وفقدت النزعة الإنسانية قوتها وأخلت لهجة عصر النهضة في الحياة والأدب والحب السبيل إلى اللاهوت والورع والتأمل في الموت .

واندثر الإصلاح الديني نفسه أو كاد يندثر في حرب الفلاحين . وعلى الرغم من المتصلين من لوثر والتشهير به فإن الثورة تألفت بألوان وأفكار بروتستانتية : وكانت التطلعات الاقتصادية تغلف بعبارات أضنى عليها لوثر مسحة من القداسة ولم تكن الشيوعية إلا مجرد عودة إلى الإنجيل . وفسر شارل الخامس « الثورة » بأنها « حركة لوثرية » (٣٩) واعتبر المحافظون نزع البروتستانت ملكية رجال الدين بمثابة أعمال ثورية تقف على قدم المساواة مع نهب الفلاحين للأديرة . وفي الجنوب جدد الأمراء والسادة الذين استبد بهم الفزع ولاءهم للكنيسة الرومانية . وفي أماكن عديدة مثل بامبرج وفيرتسبورج أعدم رجال حتى من طبقة الملاك لأنهم اعتنقوا اللوثرية (٤٠) . وقلب الفلاحون أنفسهم ظهر الحن الإصلاح الديني وعدوه غواية وخيانة ، وأطلق بعضهم على لوثر اسم « الدكتور ليچتر » أي « الدكتور الكذاب » و « المناق صنيعة الأمراء » (٤١) . وظل سنوات بعد الثورة لا يحظى بأى شعبية حتى أنه قلما كان يجرؤ على مغادرة فيتنبرج ولو كان هذا لكي يحضر وفاة والده على فراشه (١٥٣٠) . وكتب يقول (١٥٢٥) « لقد نسوا كل ما فعله الله للناس عن طريقى والآن هاهم السادة والقساوسة والفلاحون يتجمعون كلهم ضدى ويتوعدونى بالموت » (٤٢) .

ولم يكن من شيمته أن يسلم أو يعتذر . وفي يوم ٣٠ مايو عام ١٥٢٥ كتب إلى نيكولاس أمسد ورف يقول : « في رأي أنه من الخير أن يقتل الفلاحون جميعاً ولا يهلك الأمراء والحكام لأن أهل الريف امتشقوا السيف دون أن يعتصموا بسلطان إلهي» (٤٣) . وفي يولية عام ١٥٢٥ نشر « خطاباً مفتوحاً بشأن الكتاب الصعب ضد الفلاحين » . وقال إن من ينتقدونه لا يستحقون الرد عليهم فقد كشفت انتقاداتهم أنهم ثائرون في قرارة نفوسهم مثل الفلاحين وأنهم لا يستحقون الرحمة ، وقال : « ينبغي أن يأخذ الحكام بتلابيب هؤلاء الناس ويجبرونهم على إمساك أسننتهم » (٤٤) .

« إذا دار بخلدكم أن هذا الرد صعب جداً وأن هذا تحريف للكلام ولا يقصد به إلا تكريم أفواه الناس فإني أجيّب بأن هذا صحيح ، إن أي ثائر لا يستحق عناء الرد عليه لأنه إن يتقبل الجدل . والرد على مثل هذا الفم هو لكمة تدمى الأنف ، إن الفلاحين إن يصيخوا السمع ، ففي آذانهم وقر ويجب أن تفتح بطلقات الرصاص حتى تقفز رؤوسهم من فوق أكتافهم . إن مثل هؤلاء التلاميذ في حاجة إلى تأديب يمثل هذه العصا . إن من لا يستمع إلى كلمة الله عند ما ترتل برفق يجب أن يستمع إلى الجلاد عند ما يأتي ومعه الفأس . . . أما عن الرحمة فأنا إن أسمع أو أعرف شيئاً واكنى سوف أهتم بإرادة الله التي تتضمنها كلمته . . . إذا شاء بجل وعلا أن يصب عليك جام نقمته وأن يحجب عنك رحمته ، فيم تنفيذك الرحمة ؟ ألم يأت شاول بإبداء الرحمة لعمالق عند ما فشل في تنفيذ غضب الله كما أمر ؟ وأنتم يا من ترفعون عقيرتكم مطالبين بالرحمة وتمتدحونها مدحاً شديداً لماذا لم تنادوا بها عندما كان الفلاحون سائحين ، يقتلون ويسرقون ويحرقون وينهبون حتى أصبح الناس يفرعون لمرآهم أو عند سماع أخبارهم ؟ لماذا لم يبدوا الرحمة للأمراء والسادة الذين أرادوا أن يقتضوا عليهم قضاء سبهم ؟ »

واستطرد لوثر يقول إن الرحمة واجبة على المسيحيين في شؤونهم الخاصة ،

أما باعتبارهم من موظفي الدولة فيجب أن يراعوا العدالة أكثر من الرحمة لأن الإنسان ، منذ عصي آدم وحواء ربهما ، فطر على الشر إلى حد أنه غدا في حاجة إلى حكومة وقوانين وعقوبات لكبح جماحه . إننا ندين بالاحترام للجماعة التي تهدها الجريمة أكثر مما ندين للمجرمين الذين يهددون الجماعة .

« لو تحققت نيات الفلاحين فلن يكون هناك رجل شريف في مأمن منهم وإن كان على كل من يملك فلساً أكثر من أى إنسان آخر أن يتقاسى بسبب هذا . لقد بدأوا هذا الأمر وما كانوا ليتوقفوا هناك ، لسوف يجال العار النساء والأطفال وسوف يتعودون أيضاً على قتل أحبابهم الآخر ، ولن يكون هناك سلام أو أمان في أى مكان . هل سمع أحد عن شيء لا يمكن كبح جماحه أكثر من غوغاء من الفلاحين عند ما تمتلئ بطونهم ويملكون زمام السلطة ؟ . . . إن الحمار يتلقى الضربات أما الناس فيحكمون بالقوة» (٤٥) .

وقد تصدمنا اليوم عبارات لوثر المتطرفة حول حرب الفلاحين لأن النظام الاجتماعي توطد بحيث نفترض استمراره ونستطيع أن نعامل برفق هؤلاء القلائل الذين يعكرون صفوه بعنف ، ولكن لوثر واجه الحقيقة القاسية وهي أن عصابات الفلاحين تحول شكواها العادلة إلى نهب لا يفرق بين العدو والصديق وتهدد بنحرق القانون وقلب الحكومة والإنتاج والتوزيع في ألمانيا . وبررت الحوادث تحذيره بأن الثورة الدينية التي خاطر من أجلها بحياته سوف تتعرض للخطر الشديد بسبب الرجعية المحافظة التي كانت مضطرة إلى أن تتبع ثورة فاشاة . وربما شعر بأنه مدين شخصياً بعض الشيء للأمرء والأشراف الذين كانوا قد أسبغوا عليه الحماية في كيتنبرج ورومس والفارتبورج ، ولعله كان يتساءل من ينقله من شارل الخامس وكليمنت السابع إذا كفت سلطة الأمرء عن حماية الإصلاح الديني ، والحرية الوحيدة التي رأى أنها تستحق الكفاح من أجلها هي حرية عبادة الله والتماس الخلاص طبقاً لما يمليه ضمير المرء .

وأية أهمية في أن يكون المرء أميراً أو عبداً في هذا الموجز للحياة الأبدية ؟
إننا يجب أن نتقبل حالتنا هنا دون تدمير مرتبطين بالחסد والواجب ولكن
متحررين روحياً وبرحمة الله .

ومع ذلك فقد كان للفلاحين قضية ضده إذ أنه لم يتنبأ بالثورة الاجتماعية
فحسب بل قال إنها لن تسوءه وإنه سوف يحياها بابتسامة حتى لو غسل الناس
أيديهم في دماء الأساقفة ، ثم إنه كان قد قام بثورة أيضاً وعرض النظام
الاجتماعي للخطر بل وسخر من سلطة لا تقل قداسة عن سلطة الدولة . ولم يتم
بأي اعتراض على نزع السلطة الزمنية للملكية رجال الدين فكيف كان في
وسع الفلاحين أن يكون لهم حظ أفضل إذا لم يلجأوا إلى القوة ما دام حق
التصويت كان محرماً عليهم وما دام مضطهدوهم كانوا يلجأون إلى القوة .
لقد أحس الفلاحون أن الدين الجديد قد أضفى صفة القداسة على قضيتهم ،
وأثار فيهم الأمل ودفعهم إلى العمل ثم تخلى عنهم في الساعة الحاسمة . وفي
يأس غاضب أصبح بعضهم ملحداً ساخرأ (٤٦) وعاد كثير منهم أو من أطفالهم
برعاية اليسوعيين إلى حظيرة الكنيسة الكاثوليكية . واتبع بعضهم المتطرفين
الذين أدانهم لوثر وسمعوا وهم يتلون العهد الجديد دعوة إلى الشيوعية .

٣ - اللامعمدانيون يجربون الشيوعية

(١٥٣٤ - ١٥٣٦)

لا نستطيع أن ندرك مدى الحماسة التي صاحبت الأقليات المتدينة
الناثرة ، في تحزبها لانقلاب واحد أو آخر من انقلابات الثورة الدينية في
القرن السادس عشر ، ولو أدى بها إلى الموت على الحازوق ، إلا إذا لاحظنا
مدى الحماسة المتأججة التي يعتنق به معاصرونا المرطقات الاقتصادية .

وقد اتخذت أشد الطوائف الجديدة تطرفاً اسم اللامعمدانيين (المعماين
من جديد) ، وذلك من إصرارها على أن التعميد ، إذا تلقاه المرء في

طفولته ، يجب أن تعاد مراسيمه عند البلوغ ، بل إن من الخير أن يؤجل ، كما فعل يوحنا المعمدان ، إلى أن يتمكن المتلقى الراشد من اعتناق العقيدة المسيحية بعلمه واختياره .

وكانت هناك طوائف انشعبت إليها هذه الطائفة . أما الذين اتبعوا هانز دنك ولودفيج هيتزر فقد أنكروا ألوهية المسيح : فهو في نظرهم ليس إلا أشد الناس ورعاً وقد كفر عن خطايانا لا بعذابه فوق الصليب ، ولكن لأنه كان قدوة لنا في حياته^(٤٧) ورفع دنك من قدر ضمير الفرد ، وجعله فوق الكنيسة والدولة ، بل والكتاب المقدس ذاته . واتبع معظم اللامعبدانيين منهجاً تطهيرياً ، يتسم بزمت في الأخلاق ، وبساطة في السلوك والنزى . ولقد شجعهم رأى لوثر المتهور القائل بحرية المسيحيين ، فأدانوا كل حكم يقوم على العنف ، واستنكروا كل مقاومة للحكومة بالعنف ، ورفضوا قبول الخدمة العسكرية ، على أساس أن المرء يرتكب إثماً لا شك فيه ، إذا قضى على حياة إنسان . وأبوا أن يحلفوا اليمين مثل المسيحيين الأوائل ، ولم يستثنوا من هذا القسم يمين الولاء للأمير أو الإمبراطور . وكانت تحيتهم العادية « سلام الله عليك » وهي ترديد للتحية عند اليهود والمسلمين ، وتعد التحية الرائدة للصيغة التي اتخذتها طائفة الكويكر . وفي الوقت الذي اتفق فيه لوثر وزونجلي وكالفن ونوكس مع البابوات على عبث التسامح الديني ، أخذ اللامعبدانيون يبشرون به بل ويمارسونه ، وكتب أحدهم وهو بالتازار هيباير أول دفاع عنه عام ١٥٢٤^(٤٨) . وأعرضوا عن الالتجاء إلى رجال الإدارة ورفع الدعاوى . . . كانوا فوضويين تولستويين قبل ظهور تولستوى بثلاثة قرون ، وبعد ظهور بيتر شيلتسكى بقرن كامل ، ولعلمهم قبسوا منه عقيدتهم . وورث بعض اللامعبدانيين ، عن وعى أو غير وعى ، عقيدة التابورين البوهيميين أو الإخوان المورافيين ، ونادوا بشيوعية الأمتعة^(٤٩) . وإذا صدقنا ما قاله المؤرخون من الخصوم فإن قلة منهم اقترحت شيوعية

الزوجات (٥٠) . ومهما يكن من أمر فإن الطائفة رفضت بصفة عامة أية مشاركة إجبارية في الأمتعة ، ودافعت عن مبدأ العون الاختياري المتبادل ، وتمسكت بأن الشيوعية سوف تكون آلية وشاملة في ملكوت السماء (٥١) .

ولقد استلهمت كل جماعات اللاعمدانيين سفر الرؤيا ، وتوقع عودة المسيح المبكرة بصفة يقينية إلى الأرض . وأكد كثير من المؤمنين أنهم يعرفون موعد مجيئه ، وحددوا الساعة واليوم . ومن هنا كان لا بد من القضاء على كل الكفار - وهم هنا كل الناس ما عدا اللاعمدانيين - بخد سيف الرب ، ولا بد أن يعيش الصفوة يحفظهم المجد في فردوس أرضى بلا قوانين ولا زواج ، وينعمون بفيض زاهر من أطياب كل شيء (٥٢) . وعلى هذا فإن الناس الذين يحبوهم هذا الأمل ساءحوا أنفسهم ضد الكلدح ووحداية الزوجية .

وظهر اللاعمدانيون لأول مرة في سويسرا . ولعل مسيحية تدعو إلى السلام قد تسربت من ثورة الوردان في جنوب فرنسا والبيغاردي في الأراضي المنخفضة ، وتبنى قليل من المثقفين هنا وهناك كما في بازل فكرة إقامة مجتمع شيوعي . ولعل بعض الفقرات الشيوعية في « المدينة الشاذة » ، كما صورها مور ، قد حفزت العلماء الذين تجمعوا حول أرازموس هناك ، وأصبح ثلاثة من أعضاء تلك الحلقة زعماء لااعمدانيين وهم : كونراد جريبل وفيياكس مانز الزيورنخي وبالتازار هيباير الوالد شوتى في حدود النمسا المواجهة . وفي ١٥٢٤ زار ميترز والد شوت وجماء كارتشتادت إلى زيورخ ، وتكونت طائفة من اللاعمدانيين في زيورخ باسم « الروحانيين » أو « الإخوان » ، وأخذت تبشر بالتعميد عند البلوغ وعجى المسيح ، ورفضت الاعتراف بالكنيسة والدولة ، واقترحت وضع نهاية لتقاضى الفائدة والضرائب وإلغاء الخدمة العسكرية وضرائب العشور وتحريم حلف اليمين .

ولقد كان أولريخ زونجلى فى ذلك الوقت يكسب إلى صفه مجلس زيورخ الكبير ، ويستميله لآرائه البروتستانتية ، التى تضمنت إشراف السلطات الزمنية على الدين ، وناشد « الإخوان » أن يخففوا من كراهيتهم للدولة وأن يقبلوا التعميد فى الطفولة ، ولكنهم أبوا . واستدعاهم المجلس إلى مناظرة عامة (١٧ يناير سنة ١٥٢٥) ، وعند ما فشل فى تحويلهم عن آرائهم ، أمر بأن يغادر المدينة آباء الأطفال الذين لم يعملوا . وندد اللامعمدانيون بالمجلس ، وأطلقوا على زونجلى لقب التنين العجوز ، وتظاهروا فى الطرقات وهم يصيحون « الويل لزيورخ ! » (٥٣) . واعتقل زعمائهم ونفروا عن المدينة ، وأتاح لهم هذا نشر عقائدهم ، وتولى سانت - جول وابنتسيل الحركة ، وأثارت هذه برن وبازيل وكسب هيباير إلى صفه والدشوت بأسرها ، وجلس فى ابنتسيل ١٢٠٠ رجل وامرأة ممن ارتضوا حرفياً كلمات المسيح : « لا تحمل هما اطعامك » وأخذوا ينتظرون أن يأتى الله ويطعمهم (٥٤) .

وليس من شك فى أن النجاح الظاهر الذى أحرزته حرب الفلاحين فى ربيع عام ١٥٢٥ قد رفع من شأن هذه التحولات ، واكن فشلها شجع طبقات الملاك فى المدن السويسرية على اتخاذ إجراءات قمع مشددة ، واعتقل مجلس زيورخ مانز (يوليو) ، ثم جريبيل ، ثم هيباير ، وأمر بجز كل اللامعمدانيين المشبهين بأرائهم فى سجن البرج ، ليعيشوا على الخبز القفار والماء وأن « يتركوا حتى يموتوا وتبلى أجسادهم » (٥٥) . وحدث هذا لجريبيل وأغرق مانز ، أما هيباير فقد عدل عن رأيه وأطلق سراحه ، وأنكر رده وأخذ على عاتقه أن يهدى أهل أوجسبورج ومورافيا ، وقطع رأس هيتزر فى كونستانس بتهمة اللامعمدانية والزنى - وأظهرت المقاطعات التى تدين بالبروتستانتية والكاثوليكية أنها لم تكن أقل نشاطاً فى قمع هذه الطائفة ، وما أن حل عام ١٥٣٠ حتى لم يبق فى سويسرة إلا عصابات سرية لا يؤبه لها ،

وفي غضون ذلك كانت الحركة قد انتشرت ، كما تنتشر أى إشاعة ، في أنحاء جنوب ألمانيا ، وتملكت المرتدين حماسة فياضة للقيام بدعاية للمذهب الإنجيلي ، وحوّلهم ذلك إلى رسل متحمسين للعقيدة الجديدة . وأحرز ذلك وهيباير في أوجسبورج نجاحاً سريعاً بين عمال النسيج والطبقة الوسطى الدنيا ، وما أن قرّن كثير من عمال المناجم في التيرول ما هم فيه من مسغبة ، وما ينعم به من ثراء آل فوجر وآل هونخشتير ، الذين كانوا يملكون المناجم ، حتى اعتنقوا اللامعمدانية عند ما انهارت ثورة الفلاحين ، أما في ستراسبورج فإن الصراع بين الكاثوليك والبروتستانت أتاح للطائفة أن تتضافر دون أن يلحظ ذلك أحد لبعض الوقت . إلا أن كتيّباً صدر عام ١٥٢٨ حذر السلطات من أن « من يعلم الناس أن كل الأشياء يجب أن تكون على المشاع لا يخطر بباله إلا إثارة الفقراء ضد الأثنياء ، والرعايا ضد الحكام الذين عينهم الله » (٥٦) . وفي هذا العام أصدر شارل الخامس مرسوماً ينص على أن إعادة التعميد تعد جريمة عظيمة . وصدق مجلس سبيير Speyer النيابي (١٥٢٩) على مرسوم الإمبراطور وأمر بإعدام اللامعمدانيين أيّما وجدوا وحالما يقبض عليهم كما يقضى على الوحوش المفترسة ، وذلك دون أية محاكمة . وكتب مؤرخ لامعمداني تحقيقاً عن النتيجة ، ولعله كان مغالياً ، بأسلوب كتاب سير القديسين المسيحيين الأوائل :

عذب البعض على الخلعة ، وشدت أطرافهم حتى انتزعت ، وأحرق البعض الآخر حتى غدت أجسادهم رماداً وهباء منشوراً ، وشوى لحم البعض فوق أعمدة أو مزقوا إرباً بكاشات ملتهبة إلى درجة الاحمرار وشنق آخرون فوق الأشجار ، أو قطعت رؤوسهم بالسيف أو ألقي بهم في بركة الماء ومات بعضهم جوعاً أو هلكوا في غياهب السجون المظلمة واعتبر البعض منهم أصغر سناً من أن ينفذ فيهم حكم الإعدام فضربوا بالعصى ، وظل الكثيرون منهم سنوات في غياهب السجون وختمت على نحدودهم أرقام تركت فيها أخاديد أما الباقون فقد طوردوا

كاليوم والغربان ، التي لا تجرؤ على الطيران بالنهار واضطروا في أغلب الأوقات إلى الاختفاء والعيش بين الصخور والشقوق أو في الغابات أو في الكهوف والحفر (٥٧)

ويقول سباستيان فرانك أحد المعاصرين أنه ما أن حل عام ١٥٣٠ حتى كان ٢٠٠٠ لامعمداني قد نفذ فيهم حكم الإعدام ، وفي انزيشايم ، إحدى مدن الألزاس أعدم ٦٠٠ ، وفي سالزبورج سمح لمن تاب منهم بأن يقطع رأسه قبل وضعه على المحرقة ، أما الذين لم يتوبوا فقد سادهم على نار بطيئة حتى لا قوا حتفهم (١٥٢٨) (٥٨) . وألف اللامعمدانيون أناشيد مؤثرة للإشادة بذكر هذه الحوادث ، التي استشهد فيها الآلاف وأصبح معظم مؤلفي هذه الأناشيد شهداء بدورهم .

وعلى الرغم من هذه المذابح فإن الطائفة ازدادت عدداً ، وانتقلت إلى شمالي ألمانيا . ورحب بعض الأشراف في بروسيا وفيرتمبورج باللامعمدانيين باعتبارهم فلاحين مسالمين مجتهدين . ويقول أحد المؤرخين الأوائل من أنصار لوثر إن وادي الفيرا في ساكسونيا كان يزخر بهم ، وأنهم زعموا في أرفورت أنهم أوفدوا ٣٠٠ مبعوث لهداية الناس المشرفين على الهلاك . وفي ليبك سيطر جيرجن فولنفيغر المهتم باللامعمدانية على المدينة (١٥٣٣ - ٣٤) ، وفي مورافيا أحرز هيبار تقدماً لعقيدته المعتدلة التي فسرت الشيوعية بأنها ليست الملكية على المشاع ، بل الاستمساك بأن «على المرء أن يطعم الجائع ويروي ظمأ العطشان ويكسو العارى لأننا في الحقيقة لسنا مطلقى التصرف في ممتلكاتنا ولاكننا وكلاء أو موزعون لها فحسب» . وكسب هانزهوت (٥٩) ، الذي ألهبه تعاليم منتسر ، قلوب اللامعمدانيين في مورافيا من هيبار بتبشيرهم بشيوعية كاملة في الأمتعة . واعد هيبار إلى فيينا ، حيث أحرق على السارية وألقي بزوجته وهي مقيدة الأطراف في نهر الدانوب (١٥٣٨) .

وأسس هوت وأتباعه مركزاً شيعياً في أوسترايتز ، حيث رفضوا

قبول كل خدمة عسكرية ، وكأنهم كانوا يتنبأون بمجيء نابليون ، ونددوا بكل صورة من صور الحرب ، واقتصر هؤلاء اللامعمدانيون في أعمالهم على فلاحة الأرض والأعمال الصغيرة ، وحافظوا على شيوعيتهم زهاء قرن تقريباً . وأسبغ الأشراف من ملاك الأراضي حمايتهم عليهم ، لأنهم كانوا يثرون الضياع بكدهم الواعى . وكانوا يقومون بالمشاركة في الزراعة ، ويشترى لهم موظفو الكومون المواد اللازمة للزراعة وللحرف اليدوية ، ويوزعونها عليهم ويدفع جانب من ثمن بيع المنتجات كإيجار للمالك ويوزع الباقي طبقاً حاجة كل فرد ولم تكن الأسرة هي الوحدة الاجتماعية بل البيت ، وكان يحتوى على عدد يتراوح بين ٤٠٠ ، ٢٠٠٠ شخص وفيه مطبخ مشترك ومغسل ومدرسة ومستشفى ومعصرة للخمر يشترك فيها الجميع . وكان الأطفال بعد فطامهم يربون بلا فوارق بينهم وإن ظل تحريم تعدد الزوجات كما هو . ومنع هذا المجتمع الشيوعى بمرسوم إمبراطوى صدر عام ١٦٢٢ فى حرب الثلاثين عاماً ، وخير أعضاؤه بين أن يعتنقوا الكاثوليكية أو ينفوا من البلاد . وذهب بعض المنفيين إلى روسيا ، وذهب البعض الآخر إلى المجر ولسوف نسمع عنهم مرة أخرى .

وفى الأراضى المنخفضة بشر ملشيور هوفمان ، وهو دباغ من سوابيا ، بإنجيل لامعمدانى لاقى نجاحاً فائقاً . وانتهى تلميذه جان ماتيس فى ليدن إلى الرأى القائل بأنه لن يكون فى الوسع الانتظار فى أناة لمجيء أورشليم جديدة ، بل يجب المبادرة إلى تحقيقها فوراً وبالقوة إذا لزم الأمر . وأوفد فى أرجاء هولنده اثنى عشر رسولا لإعلان الأخبار السارة ، وكان أقدرهم حائكاً صغير السن يدعى جان يويكلزون المعروف فى التاريخ باسم جون الليدنى وفى أوبرا ميير بير باسم « النبي » . وكان ، دون أن يتلقى تعليماً نظامياً ، حاد الذهن خصيب الخيال وسيم الهيئة ذرب اللسان قوى الإرادة . وكتب مسرحيات أخرجها بنفسه ، ونظم الشعر ، وعند ما وقعت فى يده

كتابات توماس منتسر شعر بأن كل أشكال المسيحية ، التي تختلف عما كان ميلها وزن قد حصلها وفقدتها ، تفتقر إلى الحمية والإخلاص . وسمع ما قاله جان ماتيس وغدا نصيراً للامعمدانية (١٥٣٣) . وكان وقتذاك في الرابعة والعشرين من عمره وفي تلك السنة قبل دعوة مشثومة للحضور إلى منستر عاصمة وستفاليا الغنية الآهلة بالسكان لإلقاء عظاته .

وكانت منستر ، بحكم تسميتها باسم الدير الذي تمت حوله ، تابعة إقطاعياً لأسقفها ولرجال الكاتدرائية ، ومع ذلك فإن نمو الصناعة والتجارة قد استحدثت فيها درجة من الديمقراطية . فقد كانت حشود الوطنيين ، الذين يمثلون سبع عشرة طائفة حرفية ، يختارون كل عام عشرة من المنتخبين ، وكانوا بدورهم يختارون مجلس المدينة . ولكن الأقلية الثرية كان يتوفر فيها الجانب الأكبر من الكفاية السياسية ، ومن الطبيعي أن تسيطر على المجلس .

وفي عام ١٥٢٥ قدمت الطبقات الدنيا في عمرة حماسها لثورات الفلاحين ستة وثلاثين مطلباً إلى المجلس فسلم لها بالقليل منها وسخر من الباقي وأرجأ النظر فيها ، وأقام برنارد روتمان ، وهو واعظ من أنصار لوثر ، من نفسه لسان حال هذا التذمر ، وطلب من جان ماتيس أن يوفد بعض اللامعمدانيين الهولنديين لنصرتهم . فجاء جون الليديني (١٣ يناير سنة ١٥٣٤) وسرعان ما أقبل جان ماتيس بنفسه . ونحشى « حزب النظام » حدوث تمرد فأعد العدة لكي يدخل الأسقف فرانزفون فالديك المدينة مع ٢٠٠٠ من جنوده ، فحاربهم الأهليون بقيادة ماتيس وروتمان وجون الليديني في الطرقات ، وأجلوهم عن المدينة ، وسيطروا عسكرياً على منستر (١٠ فبراير سنة ١٥٣٤) . وأجريت انتخابات جديدة وفاز اللامعمدانيون بالمجلس واختير اثنان منهم وهما كنيبر دولنجاك وكييبرويك عمدتين وبدأت التجربة المنيرة .

ووجدت منستر نفسها على الفور في حالة حرب ، يحاصرها الأسقف وجيشه المدعم ، وفي حالة فزع من أن تتحد سريعاً كل قوى النظام والتقاليد في ألمانيا ضدها . ولكي يحمي المجلس الحديد نفسه ضد المعارضة الداخلية أصدر مرسوماً يقضي بأن ينحى جميع المعارضين اللامعمدانيين بين قبول إعادة التعميد أو مغادرة المدينة . وكان هذا إجراء قاسياً لأنه كان يعنى إكراه الشيوخ ، والنساء الحاملات للأطفال ، والأطفال الحفاة على الركوب أو السعى مشياً من المدينة في قلب الشتاء بألمانيا . وخلال هذا الحصار أعدم كلا الجانبين بلا رحمة أى شخص وجدوه يعمل لصالح العدو .

وألغى المجلس تحت وطأة الحرب وحل محله مجلس شعبي ولجنة تنفيذية للأمن العام ، وكان يرأس كلاهما زعماء من رجال الدين . ولقى ماتيس حتفه وهو يقاتل في هجوم فاشل لفك الحصار (٥ أبريل سنة ١٥٣٤) ومن ثم تولى جون الليدينى حكم المدينة باعتباره ملكاً لها .

وكانت الشيوعية التي أرست دعائمها وقتذاك تعنى اقتصاد الحرب ، ولعل هذا ما يجب أن تكون عليه كل شيوعية صارمة ، ذلك لأن الناس ليسوا متساوين بفطرتهم ، ولا يمكن إغراؤهم بمشاطرة الآخرين أمتعتهم وثرواتهم إلا عند ما يستشعرون خطراً جوهرياً مشتركاً ، وتتفاوت الحرية في الداخل بتفاوت الأمن في الخارج وتتحطم الشيوعية تحت وطأة السلام . وخشى المحاصرون أن يفقدوا حياتهم إذا لم تتحقق لهم الوحدة ، واستهوتهم العقيدة الدينية والفصاحة التي لا مفر منها ، فقبلوا حكومة دينية اشتراكية (١٠) ، وكان براودهم أمل يائس بأنهم إنما يحققون القدس الجديدة ، التي وردت في سفر الرؤيا . وأطلق على أعضاء لجنة الأمن العام اسم أكابر الأسباط الاثني عشر لإسرائيل ، وأصبح جون الليدينى ملك إسرائيل ، ولعل جون أراد أن يدخل في أذهان البسطاء معنى من معانى الوقار المفيد لمنصبه المقلقل فارتدى هو وأعوانه ملابس فخمة تركها لهم بعض السراة من المنفيين ، واتهم

الأعداء الزعماء المتطرفين بأنهم كانوا متخمين في الوقت الذي أشرف فيه الأهالي المحاصرون على الموت جوعاً ، والدليل غير مقنع وذلك لأن الزعماء يستشعرون دائماً بأن عليهم التزاماً ملحاً بالمحافظة على صحتهم . وقد وزع الجانب الأكبر من أدوات الترف المصادرة على الشعب . وكتب أحدهم « يقول إن أفقر الناس منا كانوا يطوفون وهم يرتدون ثياباً فاخرة » (٦١) ثم ماتوا جوعاً في شيء من الأبهة .

وبطريقة أخرى كانت الشيوعية في منستر مخلوذة وتحت الاختبار ، وطبقاً لما رواه شاهد من الحصوص أصدر الحكام أمراً ، يقضى بأن تكون كل الممتلكات على المشاع (٦٢) ، ولكن في الحقيقة ظلت الملكية الخاصة عملياً في كل شيء ما عدا المجوهرات والمعادن الثمينة وغنائم الحرب . وكانت وجبات الطعام تقدم على الشيوع ، ولو لکن كان لا يتناولها إلا المشتغلون بالدفاع عن المدينة . وعند تقديم هذه الوجبات كان يقرأ إصحاح من الكتاب المقدس وتُنشد أناشيد قلمسية . وعين ثلاثة من الشماسين لإمداد الفقراء بحاجاتهم ، ولتوفير المواد لهذه الصدقات أغرى البقية من الأثرياء أو أكرهوا على التنازل عن فائض أموالهم . وخصصت الأرض الصالحة للزراعة داخل المدينة لكل أسرة طبقاً لعدد أفرادها . وأكد أحد المراسيم سيادة الزوج التقليدية على الزوجة (٦٣) .

وكان ينظم الأخلاق العامة قوانين صارمة ، وشجعت الرقصات والألعاب والتمثيلات الدينية تحت الإشراف ، ولكن كان السكر والمقامرة يعاقب من يرتكبهما بقسوة ، وكان البغاء محرماً والفجور والزنا من الجرائم التي تستحق أقصى عقاب ، ودفعت زيادة عدد النساء بسبب فرار كثير من الرجال الزعماء على أن يصلحوا أمراً يستند إلى السوابق في الكتاب المقدس ، بأن تصبح النساء غير المرتبطات رفيقات للزوجات - وكن في واقع الأمر حظايا (٦٤) . ويبدو أن النساء اللاتي ارتبطن حديثاً قد تقبلن الموقف على أساس أنه أفضل من العيش في عزلة وحرمان . واحتج بعض المحافظين في المدينة

ونظموا ثورة ، وسجنوا الملك ، ولكن سرعان ما لقي جنودهم حتفهم بعد أن سلبت الحمر عقولهم ، وذلك على يد جنود اللامعمدانيين ولعبت النساء دوراً بطولياً في انتصار القدس الحديدية واتخذ جون ، بعد أن أطلق سراحه وأعيد إلى عرشه ، عدة زوجات (كما يقول المؤرخون من خصومه) ، وحكم المدينة حكماً يتسم بالعنف والطغيان (٦٥) . ولا بد أنه كان يتصف ببعض الصفات اللطيفة لأن آلاف الناس تحملوا حكمه وعرضوا للتضحية بأرواحهم في خدمته . وعند ما طالب بمتطوعين يسرون وراءه في هجوم مضاد على معسكر الأسقف انخرط في خدمته عدد كبير من النساء أكثر مما رأى أنه من الحكمة أن يستخدمن ، وعندما طلب « رسلا » لاقتحام الطريق اطلب العون من جماعات اللامعمدانيين الأخرى حاول اثنا عشر رجلاً أن يفتقروا خطوط الأعداء ، وقبض عليهم جميعاً وقتلوا ، واندفعت فجأة امرأة متحمسة مستلهمة قصة جوديث ، إلى الخارج لاغتياك الأسقف ، وحيل بينها وبينه ، وأعدمت .

وعلى الرغم من أن الكثيرين من اللامعمدانيين في ألمانيا وهولندا رفضوا التجاء طائفهم الأنخوية في منستر للقوة فإن الكثيرين منهم هتفوا استحياناً للثورة . ونمت كولونيا وترير وأمستردام وميدن بصلوات لامعمدانية دعت فيها بنجاح اللامعمدانية ، وأبحرت من أمستردام خمسون سفينة (٢٢ مارس و ٢٥ مارس سنة ١٥٣٥) تحمل إمدادات للمدينة المحاصرة ، ولكن السلطات الهولندية فرقها كلها بدءاً . وفي الثامن والعشرين من مارس استولت عصابة من اللامعمدانيين على دير في وست فريزلاند ، وحصنته بعد أن سمعت صدى ثورة منستر ، ولكنها غلبت على أمرها ، وفقد من أفرادها ثمانمائة .

وعند ما واجهت قوى الإمبراطورية المحافظة من البروتستانت والكاثوليك على السواء هذه الثورة التي استشرت حشدت جنودها لقمع حركة

اللامعمدانية في كل مكان . وها هو لوثر الذي كان قد أشار عام ١٥٢٨ بالرفق مع المهرطقة الجدد ينصح عام ١٥٣٠ بشهر السيف ضدهم ، لا باعتبارهم « كفاراً بل بوصفهم من كبار مشرى الشعب » (٦٦) وأذعن ميلانكتون ، وأرسات مدينة تلو أخرى المال والرجال للأسقف ، وأصدر المجلس النيابي في برمس (٤ أبريل سنة ١٥٣٥) أمراً بفرض ضريبة على كل ألمانيا لتمويل الحصار . وهكذا استطاع الأسقف وقتذاك أن يحيط بالمدينة ويحرمها من كل إمداداتها ، وعند ما واجه الملائك جون المجاعة ونخور العزيمة أعلن أن كل من يرغب يستطيع مغادرة المدينة ، فانهز الفرصة كثير من النساء والأطفال وبعض الرجال . أما الرجال فكان نصيبهم السجن أو القتل على أيدي جنود الأسقف ، وأما النساء فقد أبقوا على حياتهم للاستفادة من أداء خدمات مختلفة . وأنقذ أحد المهاجرين حياته بأن عرض على المحاصرين أن يريهم جانباً من الأسوار خالياً من الحماية ، فتسلقته قوة ، واقتحمت أحد الأبواب بإرشاده (٢٤ يونية) ، وسرعان ما تدفق إلى المدينة بضع آلاف من الجنود . وكانت المجاعة قد أنشبت أنيابها في المحاصرين ، بحيث لم يبق منهم إلا ٨٠٠ رجل من القادرين على حمل السلاح ، وتحصنوا بمتاريس في السوق ، ثم استسلموا مقابل وعد بمنحهم جواز الأمان لمغادرة منستر ، وعند ما سلموا أسلحتهم ذبحوا عن بكرة أبيهم . وفتشت البيوت وعثر فيها على أربعمائة من الأحياء كانوا مختبئين فقتلوا ، وربط جون الليدني واثنان من أعوانه على الساريات ، وخمش كل جزء من أجسادهم بكماشات متهبة إلى درجة الاحمرار حتى « أصيب بالغثيان تقريباً كل من كانوا وقوفاً في السوق من الراتحة المنتنة » ، وشدت ألسنتهم حتى تدلت من أفواههم ، وأخيراً طعنت قلوبهم بالخناجر (٦٧) .

واستعاد الأسقف المدينة ، وزاد سلسطانه السابق ، وأصبحت كل أعمال السلطات المدنية عرضة من الآن فصاعداً للاعتراض من الأسقف ، واستعادت الكاثوليكية سلطانها المظفر ، وخشى اللامعمدانيون في أرجاء الإمبراطورية على أرواحهم ، فنبذوا كل عضو في طائفتهم يتهم باستخدام القوة ، ومع ذلك أعدم الكثيرون من هؤلاء الهراطقة المسلمين . وأشار ميلانكتون ولوثر على فيليب الهسي بإعدام كل من انضموا إلى الطائفة (٦٨) ، وشعر الزعماء المحافظون أن مثل هذا التهديد الخطير للنظام الاقتصادي والسياسي الذي توطدت أركانه يجب أن يعاقب بقسوة لا تعرف الغفران .

وتقبل اللامعمدانيون الدرس وأجلوا الشيوعية إلى العصر الآلاني (عصر حكم المسيح ألف سنة) وأسلموا أنفسهم إلى ممارسة ما يتفق مع مبادئهم عن الحياة الرصينة البسيطة التقية المسالمة - التي لا تغضب الدولة .

وقام ميثو سيمونز ، وهو قس كاثوليكي اعتنق مذهب اللامعمدانية (١٥٣١) ، بإرشاد أتباعه من الهولنديين والألمان إرشاداً بارعاً جداً ، إلى حد أن «المينونيين» عاشوا على الرغم من كل ما تعرضوا له من محن ، وكونوا كوميونات زراعية ناجحة في هولندا وروسيا وأمريكا . وليس هناك علاقة قرابة واضحة بين اللامعمدانيين في القارة الأوروبية وبين جماعة الكويكر الإنجليز والمعمدانيين (جماعة البابتست) الأمريكيين . إلا أن رفض جماعة الكويكر للحرب والأيمان ، وإصرار جماعة المعمدانيين (البابتست) على التعميد عند البلوغ مستمدان من نفس تقاليد العقيدة الدينية والسلوك ، التي اتخذت أشكالاً متعددة (٦٩) في سويسرة وألمانيا وهولندا . وتشترك هذه الجماعات تقريباً في صفة واحدة ، وهي تصميمها على تقبل العقائد التي تخالف عقائدها في سلام . وأن علم اللاهوت الذي ساندتها

وقت الشدة والفقر والاستشهاد لا يكاد يتفق مع فلسفتنا العابرة ، وإن كانت أيضاً بصددتها وولائها ومسامحتها قد أثرت تراثنا وكفرت عن إنسانيتنا المدنسة(*) .

(*) هاجر فوج من اللامعمدانيين (١٧١٩) من ألمانيا إلى بنسلفانيا ، واستقر في جرمانتاون أو بالقرب منها . وهؤلاء الدوفاكر يبلغ عددهم الآن زهاء ٢٠٠,٠٠٠ . وفي عام ١٨٧٤ غادر روسيا كثير من اللامعمدانيين ، الذين ينحدرون من أصل مورافي ، واستقروا في جنوب داكوتا والبرتا .

وفي شرق بنسلفانيا لا يزال المينونيون الامينيون - وأطلق عليهم هذا الاسم نسبة إلى جاكوب أمين وهو زعيم عاش في القرن السابع عشر - يرفضون رسمياً استخدام الأمواس والأزوار وطرق السكك الحديدية والسيارات ومشاهدة الصور المتحركة وقراءة الجرائد ، بل إنهم لا يستخدمون الجارات ، ومع ذلك فإن مزارعهم تعد من أنجح المزارع وأكثرها تنسيقاً في أمريكا ، ويبلغ تعداد المينونيين ٤٠٠,٠٠٠ عام ١٩٤٩ .